الصهيـونـيّة والاستعمار الاستيطانيّ: مقاربات فلسطينيّة

ندين روحانا عرين هوّاري
محرّران

مدى الكرمل
المـركـز العـربـي للـدراسـات الاجتماعية التطبيقية

الصهيونيّة والاستعمار الاستيطانيّ: مقارَبات فلسطينيّة
تحرير: نديم روحانا وعرين هوّاري

Zionism and Settler Colonialism: Palestinian Approaches
Edited by: Nadim N. Rouhana and Areen Hawari

التدقيق اللغويّ: حنّا نور الحاجّ
التصميم: أمل شوفاني
مسؤولة النشر والإنتاج: إيناس خطيب

لوحة الغلاف: "استيطان" للفنان الفلسطينيّ نبيل العناني.
نبيل العناني: فنان تشكيليّ، وُلد في قرية اللطرون (فلسطين) عام 1943.

ISBN: 978-965-7308-28-8
© كل الحقوق محفوظة 2023
مدى الكرمل- المركز العربيّ للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة
شارع هميچينيم (الملك جورج) 90، حيفا
هاتف: 048552035، فاكس: 048525973
www.mada-research.org
mada@mada-research.org

المحتويات

5 **المقدّمة**
ندیم روحانا وعرین هوّاري

19 **الباب الأوّل: الاستعمار الاستيطانيّ: مقارَبات نظريّة**

21 المقاومة الفلسطينيّة ومعضلة الشرعيّة لدى الاستعمار الاستيطانيّ في فلسطين: الصهيونيّة تردّ بالسرديّات الدينيّة
ندیم روحانا

57 جدليّة الاستيطانيّ والاستغلاليّ في بنْية الاستعمار الإسرائيليّ: الأراضي المستعمَرة عام 1967 نموذجًا
أحمد عزّ الدين أسعد

83 قراءة مقارِنة بين الحالتين الاستعماريّتين في فلسطين والجزائر
أباهر السقّا

119 الكولونياليّة الاستيطانيّة في السياق الإسرائيليّ _ الفلسطينيّ، تفكيك الاستعمار، وعلم اجتماع إنتاج المعرفة في إسرائيل
أريج صبّاغ خوري

173 بنيامين نتنياهو وإعادة إنتاج المشروع الصهيونيّ ضمن منظومة صراع الحضارات
مهنّد مصطفى

193 **الباب الثاني: السياسات الاستعماريّة الاستيطانيّة للمشروع الصهيونيّ**

195 الاقتصاد السياسيّ تحت النظام الكولونياليّ ونشوب ثورة 1936
محمود يزبك

221 البحث عن الجولان التوراتيّة: مُخيّلات يهوديّة وتأسيس الجغرافيا الاستيطانيّة في القرن التاسع عشر
عامر إبراهيم

249 سياسات نزع الطفولة ("اللا_طفلنة"): تعقُّب آثار الكولونياليّة الإسرائيليّة
نادرة شلهوب كيفوركيان

285 السياسة الحيويّة للمحو الطبقيّ الفلسطينيّ في سوق العمل الاستعماريّ
سراب أبو ربيعة قويدر

305 **الباب الثالث: في فاعليّة المستعمَر**

307 السيّدة كيرن كَييمت: تَشكُّل هُويّات رجوليّة فلسطينيّة
في ظلّ الحكم العسكريّ
عرين هوّاري

341 مفهوم التطبيع ضمن بنْية الاستعمار الاستيطانيّ في فلسطين
ما بين ثنائيّة الرفض والقبول
مَي البزور

387 الاستعمار الاستيطانيّ ومهجَّرو المدن الفلسطينيّة:
ما بين المدن المهجَّرة ومدن المهجَّرين
هبة يزبك

419 الذاكرة كموقع مقاومة: تحرير التاريخ من أَسْر حاضر مستعمَر
أميرة سِلْمي

447 المشروع الاستيطانيّ الصهيونيّ في الأغنية الشعبيّة السياسيّة:
قراءة في الشفاهيّة الفلسطينيّة الثوريّة 1917-1952
قَسَم الحاجّ

483 المساهِمون

السياسة الحيويّة للمحو الطبقيّ الفلسطينيّ في سوق العمل الاستعماريّ

سراب أبو ربيعة-قويدر

دُرِس منطق المحو الكولونياليّ _ الاستيطانيّ الذي يتمثّل في إزالة وإقصاء الفلسطينيّ الأصلانيّ في العديد من حقول المعرفة، نحو: المواطَنة (Rouhana & Sabagh-Khoury, 2014)؛ الحيّز الجغرافيّ (Yiftachel, 2009)؛ الثقافة والتعليم (Abu-Saad, 2008)؛ التاريخ (Nasasra, 2015)؛ تخطيط المدن (Jabareen, 2017). سأعرض في هذه الورقة منظورًا إضافيًّا لتحليل "منطق إزالة" الأصلانيّين في حقل الاقتصاد، ويستهدف مجموعة -آخذة في النموّ- من النساء الفلسطينيّات المهنيّات اللواتي يَقْطُنَّ في جنوب النقب. نسبة هذه المجموعة لا تتجاوز 6% من المجموع الكلّيّ للسكّان البدو (Ghara, 2015, p. 73)، لكنّها تحتفظ برأس المال الثقافيّ الأعلى في مجتمعها، على المستويَيْن الاقتصاديّ والتعليميّ.

على الرغم من أنّ محو الاقتصاد الفلسطينيّ قد خضع لدراسات ومراجَعات مستفيضة عبْر مَحاور عديدة (نحو: الأرض والتنمية المنقوصة، والإحصاء واقتصاد التمويل الدوليّ) (Abu-Bader & Gutlieb, 2009; Turner & Shweiki, 2014)، فإنّ ما أدّعيه هو أنّ منطق الإزالة والاستبدال لا يستهدف القِطاعات الفقيرة غير المستقلّة اقتصاديًّا فحسب، بل يستهدف كذلك الشرائح القويّة من الناحية الاقتصاديّة، تلك التي تتحدّى، بوجودها، علاقات القوّة الكولونياليّة.

تشير كثير من الدراسات (Abu-Bader & Gutlieb, 2009; Yonai and Kraus, 2010) إلى تدنّي نسبة انخراط النساء الفلسطينيّات بعامّة، والبدويّات بخاصّة، في سوق العمل في إسرائيل. وتحصر هذه الدراسات تفسيراتها عدمَ انخراط المرأة الفلسطينيّة في سوق العمل في إطارين: الأوّل إطار الثقافة والعادات العربيّة التي تمنع المرأة من الخروج إلى الحيّز العامّ. هذا المفهوم يحصر تمثيل المرأة الفلسطينيّة في قالب جوهرانيّ غير متغيّر ومعدوم الفاعليّة. بالنسبة للمرأة البدويّة في النقب، انحصرت رؤيتها على مدار سنوات الاستيطان الكولونياليّ الإسرائيليّ كجزء من أقلّيّة صحراويّة غير متغيّرة وغير قابلة "للتأقلم" مع الحداثة الإسرائيليّة (أبو عجاج وبن داڤيد، 1988؛ هوز وكينان، 1997؛ Ben-David, 2000; Kressel, 1992). الثاني إطار سياسة غير منصفة في توفير فرص العمل والبنْية التحتيّة في القرى العربيّة أو

تقسيم غير متساوٍ في الميزانيّات (Herzog, 2004; Khattab, 2002; Lewin-Epstein & Semyonov, 1994). وعلى الرغم من أنّ هذا الخطاب يشير إلى انعدام المساواة، نراه يفتقر إلى المفهوم الاستعماريّ العنيف للمحو والإحلال والسيادة الحصريّة الذي يكمن في هذه السياسات، والذي أشير إليه من خلال بحثي.

في هذه الورقة، أقترح تفكيك مَحاور التحليل السائدة التي هَيْمنت على الأبحاث التي تتناول النساء الفلسطينيّات في النقب، ولا سيّما تفكيك التوجُّهات الثقافيّة _ الجوهرانيّة التي ميّزت البحث الجندريّ في النقب، وتسليط الضوء على فئة إضافيّة _ طبقيّة هي فئة "النساء المهنيّات". ويساعد هذا التحليل على إماطة اللثام عن منظومات التسويغ / المراوَغة التي تمارسها الكولونياليّة الاستيطانيّة والتي تتمثّل في إقصاء العامل الطبقيّ من خلال المساس بالنساء عبْر تمثيلات ثقافيّة ودينيّة وجماعيّة، في مسعى لإقصائهنّ من الحيّز العامّ _ التشغيليّ. فئة "الطبقة" تكشف النقاب عن مسار نموّ "طبقة نساء وسطى" في المجتمع الفلسطينيّ في النقب، تلك التي تهدّد النظام الاستعماريّ الذي يولّد ما سمّتها كيمبرلي كرينشو "التقاطُعيّة التمثيليّة" (Representational intersectionality) (Crenshaw, 1993).

تُعرِّف كرينشو التقاطعيّةَ التمثيليّةَ بأنّها "الإنشاء الثقافيّ للنساء المهمَّشات" (Ibid, p. 1283). يَحْمل التمثيل في الحالة الماثلة أمامنا أهمّيّة كبرى لأنّه يعمّق فهمنا للآليّات التي تقوم باستنساخ البنى الهرميّة الجندريّة والعِرْقيّة، وتكثّف بالتالي عمليّة "عَنْصَرة" (Racialization) النساء. سأوضّح في ما سيأتي كيف يواصل "لاعبون" في الحيّز الحِرَفيّ المتعدّد المستويات تعزيزَ هذه الدونيّة التمثيليّة للنساء الفلسطينيّات، من خلال الارتكاز على مؤشّرات (Markers) "ثقافيّة" استشراقيّة لتمييزات ثنائيّة تسعى لإدامة وتثبيت أدوار ووظائف النساء الثقافيّة في الحيّز العامّ. خطاب كهذا يُنتج على نحوٍ حتميّ انعدامًا "مُعنصَرًا" لمساواة النساء في سوق العمل.

في إسرائيل، تعمل العنصريّة كمبدأ تأسيسيّ للمسارات القوميّة، بمفردات رسم حدود الأمّة وديمومة الهُويّة اليهوديّة القوميّة، ويشمل الأمر -في ما يشمل- آليّات احتواء وإقصاء الأفراد على قاعدة تصنيف الذوات الإنسانيّة كمثل تلك التي يمكنها الانتماء إلى "جماعة" محدّدة (Collectivity) وتلك التي لا يمكنها الانضمام إليها (غولدين وكِمب، 2008، ص 263). من هنا فإنّ العنصريّة هي شكل من أشكال الإقصاء والدفع نحو الدونيّة، والإخضاع والاستغلال، وتتخلّلها قدرة المجموعة المتسيّدة على فرض معتقدات مهيمنة تتنكّر لمنالّيّة مجموعات الأقلّيّة للحقوق المتساوية. في هذا تقول نهلة عبدو إنّه "من أجل التوطُّن والتوسُّع، المستوطن بحاجة إلى إقصاء الآخر" (Abdo, 2011, p. 40).

بالإضافة إلى ذلك، سأحاول في هذه الورقة الربط بين طرق وأساليب المحو الكولونياليّ وتفكيكه في سياق سوق العمل الاستعماريّ، بغية خلق وتعزيز سيادة فوقيّة، وسيطرة وهيمنة استعماريّة، ودونيّة طبقيّة عربيّة، وذلك من خلال استخدام آليّات بطش وقمع، منها المرئيّة المباشرة، مثل سياسة التخويف التي تستهدف ضبط الجسد، والرغبة، وتسيطر على الذهن؛ ومنها غير المرئيّة، وغير المباشرة، مثل سياسة محو تمرّ من خلال تعزيز الضغط الأبويّ والقبليّ تجاه النساء العاملات.

يعتمد الفصل على الربط بين ثلاثة مَحاور نظريّة لفهم أنواع المحو الطبقيّ والسياسات الحيويّة، على النحو التالي:

المحور الأوّل: مفهوم السياق الاستيطانيّ، والعنف، والسيادة والسياسات الحيويّة (Biopolitics)

يشرح ڤيراتشيني منطق الإلغاء /المحو في الحالة الكولونياليّة الاستيطانيّة قائلًا: "إنّ السكّان الأصلانيّين يعرقلون استيلاء المستوطنين على الأرض، وبالتالي فإنّ تزايدهم يحمل نتائج عكسيّة" (Veracini, 2010, p. 26). ومن هنا، فإنّ الدافع الرئيسيّ للإلغاء هو الحصول على الأرض من خلال ممارسة السياسات الحيويّة. منطق المحو يشكّل قاعدة منظّمة للمجتمع الكولونياليّ الاستيطانيّ أكثر من كونه حدثًا يقع لمرّة واحدة ويسعى للإحلال ويشمل إستراتيجيّات عدّة، من بينها: المواطَنة، والتحوّل الدينيّ، وإعادة التنشئة الاجتماعيّة في المجتمعات المحلّيّة وشتّى الأنواع من تشجيع المحاكاة البيو_ثقافيّة المتشابهة (Assimilation). تصبو السياسات الحيويّة إلى تنظيم السكّان كأفراد أو كجماعة، وذلك يشمل ممارسات التأديب والإقصاء والتطبيع والتبعيّة والمحو (Lemke, 2011, p. 5). يشير فوكو (1980) إلى عدّة معانٍ للسياسات الحيويّة، ومنها تعزيز السيطرة الذي له دَوْر مهمّ في بروز العنصريّة المتحضّرة[1] وإنتاج أساليب الضبط الليبراليّة كالتحديث -على سبيل المثال.

ففي هذا السياق، يُستعمل جسد المرأة الأصلانيّة لضبط الأصلانيّين على نحوٍ مباشر أو غير مباشر (Stoler, 1997). أحد الأساليب المباشرة -مثلًا- العنصريّة من خلال مؤشّرات دينيّة أو ثقافيّة. الأساليب غير المباشرة تشمل استخدام النظام الأبويّ من خلال شَرْعنة العنف الجندريّ ضدّ النساء وعدم تدخل السلطات في هذه الحالات. والسبب لعدم التدخُّل يعود إلى الموروث الاستيطانيّ الذي يرى بالمرأة الأصلانيّة جسدًا ملوَّثًا ولهذا فهو أيضًا "مُتاح" جنسيًّا (Smith, 2003, p. 73).

1. العنصريّة التي تعتمد على تبريرات ليبراليّة من الصعب التشكيك في مصداقيّتها.

تشكّل هذه الأجساد "الملوّثة" تهديدًا أمنيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا بكونها جزءًا من العدوّ "البيولوجيّ" الداخليّ (Stoler, 1997, p. 59). في المجال الاقتصاديّ، يتميّز الاحتلال الاستيطانيّ بمقدرته على التحكُّم في اقتصاد الأصلانيّين الذي يمارَس من خلال المؤسَّسات الرسميّة وغير الرسميّة (Veracini, 2010, p. 12).

ولأنّ دراستي تهدف إلى تفكيك مفهوم المحو الطبقيّ وتحليله، فالمحو الذي أركّز عليه هنا هو ذلك الذي يعمل على إلغاء الوجود الطبقيّ من خلال استعمال وسائل قمع تنبثق عن الموروث الكولونياليّ.

المحور الثاني: مفهوم الإلغاء /المحو في سياق الاستعمار الاقتصاديّ

يهدف المشروع الاستيطانيّ إلى تنشئة هُويّة معنصَرة ومجنسَنة من خلال استخدام أساليب قمعيّة متعدّدة. في السياق الاقتصاديّ، يهدف هذا المشروع إلى فرض سيادته وهيمنته على اقتصاد السكّان الأصليّين التي تشرعَن من خلال سياسات الجسد التي تُستخدم لضبط الحياة السياسيّة والاقتصاديّة لهذه المجموعات. يقول ڤيراتشيني (2010) إنّ السيادة لا تمارَس فقط من خلال المؤسّسات الرسميّة للدولة، وإنّما تمارَس كذلك من خلال وسائل بديلة والمؤسّسات غير الرسميّة التي تضع على أَجِنْدتها تفكيك الاقتصاد الأصلانيّ وعرقلته. إحدى هذه الوسائل الشفّافة تستعمل العنف الرمزيّ (Symbolic violence) الذي يقول عنه بورديو في هذا السياق:

> فاعليّته تكمن في تقمّصه في الجسد والعادات (الهابيتوس)، ويظهر من خلال العلامات الجسمانيّة -مثل الانزعاج والاضطراب لدى المهيمَن عليه- التي تتناقض مع شعور الرخاء والاطمئنان عند المسيطِر، إذ تعتمد السيطرة / الهيمنة على الطاعة المطلَقة للنظام الكائن، وعلى دمجها في أجساد المهيمَن عليهم، وتؤدّي إلى الشعور بعدم الاطمئنان وفي بعض الحالات إلى إنكار ذاتيّ (Bourdieu, 1989).

المحور الثالث: مفهوم المحو الطبقيّ في سياق التاريخ الكولونياليّ

تشير الدراسات التاريخيّة أنّ العلاقة الأولى التي تربط بين الاقتصاد والكولونياليّة الاستيطانيّة يعبَّر عنها من خلال أساليب الاستيطان. في هذا السياق، لا يصبو الاستيطان للسيطرة فقط، وإنّما يصبو كذلك للمحو والإحلال (McEwan, 2009; Veracini, 2010; Wolfe, 2012).

إحدى طرق المستعمِر لتعريف الحدود الطبقيّة للأصلانيّ هي من خلال التلاعب بأدوار الطبقة الوسطى في الفترة الكولونياليّة؛ وذلك أنّ الطبقة الوسطى المتعلّمة والواعية قوميًّا

قامت بدور هامّ في مقاومة الاستعمار الاستيطانيّ أو الاستعمار غير الاستيطانيّ، وشكّلت تهديدًا على السلطة المحتلّة التي حاولت من جهتها أن تسيطر وتطمس تطوير هذه الطبقة. فعلى سبيل المثال، في جنوب أفريقيا يروي چود (Good, 1976) ووِسْتْ (West, 2002)، وغيرهما من الذين بحثوا مكانة الطبقة الوسطى في التاريخ الاستعماريّ، أنّه من ناحية احتاج المحتلّ إلى أيدٍ عاملة رخيصة توافرت في الأيدي الأصلانيّة العاملة وغير المتعلّمة، إذ إنّ المحتلّ خطّط أن يُبقي الأصلانيّ تحت السيطرة. ولكن من الناحية الأخرى، بدأت الطبقة الوسطى تزدهر رويدًا رويدًا، نتيجة لتلقّي التعليم في مؤسّسات المستعمِر التبشيريّة التي كانت جزءًا من سياسات التبعيّة ذات الأهمّيّة البالغة من أجل توفير وظائف للتشغيل في هذه المؤسّسات الاستعماريّة. شكّلت هذه المؤسّسات فرصة للأصلانيّين أن يهربوا من العمل الشاقّ. مع ازدهار هذه الطبقة التي شكّلت الفئة المناضلة من أجل حقوق الأصلانيّ، والتي بدأت تشكّل تهديدًا على النظام الاستعماريّ، شَرَعَ المحتلّ في تطوير تعليم صناعيّ كي يحدّ من توسُّع هذه الطبقة الواعية. بَيْدَ أنّ هذه الطبقة رفضت هذه السياسات من خلال محاربة القمع، فكَوَّنت منظوماتِها الخاصّةَ (كالرابطات والمؤسّسات المهنيّة -على سبيل المثال) واتّحدت مع فئات أخرى من أجل توسيع قاعدة النضال، وهنا يكمن تهديدها على المحتلّ.

يظهر هذا الأسلوب كذلك في التاريخ الفلسطينيّ. في دراستَيْن تشير تاراكي (Taraki, 2008) وروبينسون (Robinson, 1993) إلى أهمّيّة هذه الرابطات المهنيّة، وأدوار النساء المتعلّمات في تقديم الخدمات الطبّيّة وغيرها، ومحاربة المحتلّ من خلال المهنيّة.

ثمّة آليّة أخرى استخدمها المحتلّ للحدّ من توسُّع هذه الطبقة، من خلال تعزيز الزعامة القبليّة. يُظهِر محمود مَمْداني في كتابه أساليب التلاعب مع الأصلانيّين: من جهة يجري تعزيز النظام الأبويّ والقبليّ، ومن جهة أخرى يجري إضعافه، وذلك حسب مصلحة المستعمِر. هذا الأسلوب يسمّيه مَمْداني: "حصر الأصلانيّ أو الذات الأصلانيّة" (Containerization of a subject people) (Mamdani, 1996, p. 51).

في السياق التاريخيّ الفلسطينيّ، مرّت سياسة محو الأصلانيّ من خلال التحالف بين الحركة الصهيونيّة والانتداب البريطانيّ لصَهْيَنة البلاد ومحو الوجود الفلسطينيّ، وذلك من خلال الاستيلاء على الأراضي الفلسطينيّة، ومن خلال التوسّع والاستيطان بدعم من الاحتلال البريطانيّ الذي أسهَمَ في خلق سوق عمل يهوديّ وآخر عربيّ غير متساويين. حاول البريطانيّون أن يخلقوا صراعات طبقيّة باتّباع سياسة "فرِّق تَسُدْ" بين الطوائف الدينيّة، وخلق المنافسة على أماكن العمل. ولكن على الرغم من هذه السياسات، حتّى عام 1948 ازدهرت الطبقة الوسطى للمتعلّمين والمثقّفين الذين شكّلوا جزءًا من الحركة العربيّة الوطنيّة: الطبقة التي

تلاشت مع الاحتلال الإسرائيليّ، وذلك من خلال محو المدن الفلسطينيّة وإخلائها من الطبقة الوسطى التي طُرِدت منها (منّاع، 1999).

تتداخل عمليّة تضييق الخناق على الطبقة الوسطى للنساء الفلسطينيّات بمسار الهيمنة الاستعماريّة على الطبقة الوسطى العربيّة في تاريخ الشرق الأوسط، وبمسار إضفاء المضمون الكولونياليّ على مواطَنة الفلسطينيّين في إسرائيل بشتّى الوسائل المتاحة. فالطبقة الوسطى في التاريخ الاستعماريّ للشرق الأوسط شكّلت جزءًا من النضال ضدّ الاحتلال الغربيّ والإسرائيليّ في سبيل التحرُّر القوميّ، وتأسيس أمّة حديثة مستقلّة. لذا، فإنّ مسار تشكُّل الطبقة الوسطى العربيّة (والفلسطينيّة منها) يتصادم مع محاولات المحتلّ تفريغ الطبقة التي يتوافر لديها رأس المال الثقافيّ والحِرفيّ والاقتصاديّ الأكبر في المجتمع العربيّ من قوّتها السياسيّة.

عرقلت إسرائيل كلّ فرصة لنموّ طبقة وسطى، وذلك من خلال عزل الفلسطينيّين الذي بقوا في حدود الـ 48، اقتصاديًّا وسياسيًّا وطبقيًّا بواسطة الحكم العسكريّ، وتطوير طبقة وسطى يهوديّة مدينيّة أسوة بقطع الطريق على إمكانيّات تطوير طبقة وسطى عربيّة. الطبقة الوسطى اليهوديّة تطوّرت بفضل الدعم الاقتصاديّ الإسرائيليّ والأمريكيّ، وأصبحت القوّةَ المركزيّة في جميع مؤسّسات وأذرع السلطة. على هذا النحو نمت طبقة حاكمة استمدّت قوّتها ومواردها الاقتصاديّة من نهبِ أراضي وأملاك الفلسطينيّين الذين اقتُلِعوا من أرضهم وهُجّروا من وطنهم، وتحويلها إلى موارد مُهِمّة لتطوير فكرة "الطلائعيّة" والنهوض بالسكّان اليهود (Rosenfeld, 1978).

ما أدّعيه هو أنّ محور الطبقة هو محور مهمّ (وغير حصريّ) في دراسة المجموعات المقموعة، كالمجتمع الأصلانيّ في النقب. عمليّة المحو الطبقيّ تشكّل جزءًا من إخضاع هذا المجتمع لسياسة كولونياليّة _ استيطانيّة؛ فالأضرار التي تُلحِقها عمليّة المحو الطبقيّ هذه بالمصالح الاقتصاديّة، وبنموّ نخبة طبقيّة عربيّة، تخلق ذاتًا تعيش حالة من الإقصاء من خلال وسائل اقتصاديّة.

كذلك على ضوء حالة الفقر التي تميّز أكثر من 80% من النساء الفلسطينيّات، فإنّ نموّ مجموعة طبقيّة مقلّصة (لا تتعدّى 6% من النساء) وتتمتّع بوفرة اقتصاديّة (بمفردات الرواتب وحالة السوق) يُكسبها مكانة فائضة تمكّنها من التحوّل إلى قوّة سياسيّة واجتماعيّة تتحدّى النظام الكولونياليّ القائم.

في هذا الصدد، يقول روزنفلد: "من خلال محو طبقيّة العرب، عبْرَ جعلهم "رسميًّا" مختلفين وسطحيّين ومشرقيّين، تُشَرْعِن الدولة كلّ أهدافها، كمصادرةِ الأراضي المصوَّبةِ مباشرة ضدّ

العرب" (Rosenfeld, 1978, p. 401). ما يعنيه روزنفلد هو أنّ الدولة أظهرت الفلسطينيّين من خلال منظور استشراقيّ فئةً تقليديّة لا فئةً طبقيّة.

اليوم نرى أنّ الفصل في الحالة الاقتصاديّة الإسرائيليّة بين سوق العمل اليهوديّ وسوق العمل الفلسطينيّ يخلق فضاء كولونياليًّا يُخضِع النساء ويقلّص من حضورهنّ في الحيّز التشغيليّ عبْر آليّات هيمنة مباشِرة وأخرى غير مباشِرة، وذلك من خلال إدارة أجسادهنّ في الحيّزَيْن اليهوديّ والعربيّ، أي تنظيم وضبط أدوار النساء التقليديّة (كالولادة ورعاية البيت والأطفال) وضبط الجسد من خلال لباسهنّ كغطاء الرأس. وهذا الضبط يُستعمل كوسيلة لتقليص وجودهنّ المهنيّ في سوق العمل. وبينما تمارَس الهيمنة في سوق العمل اليهوديّ مباشرة عبْر إدارة أجساد النساء الفلسطينيّات، وعبْر تمثيلات ثقافيّة ودينيّة، تُمكِّن السيطرةُ على النساء في سوق العمل الفلسطينيّ في النقب (والذي يعمل بمنأى عن السوق اليهوديّ، ولا يخضع لتدخُّلاته وإشرافه عند الضرورة)، تُمكِّن البطركيّين والقبليّين (بالاستناد إلى التحالفات التي تبنيها المؤسّسة الحاكمة معهم) من إدارة أجساد النساء في هذا الحيّز (من خلال سياسة الوجهاء). على هذا النحو تقوم المؤسّسة الحاكمة بصورة غير مباشرة، ومن خلال البطركيّين وزعماء القبيلة، بقطع الطريق على نموّ وتطوُّر طبقة وسطى لدى النساء.

ما هي إذًا أهمّيّة المحو الطبقيّ للمستعمَر؟ وجود هذه الطبقة من النساء في الحيّز اليهوديّ لا كمهنيّات متساويات في رأس المال الثقافيّ والمهنيّ فحسب، بل كذلك كنساء ذوات وعي قوميّ، يهدّد علاقات السيطرة والسيادة والهيمنة في سوق العمل؛ لأنّه -بحسب منظومة الموروث الكولونياليّ- لا يحقّ للمستعمَر أن ينصّب قامته متساويًا أو يشارك المستعمِر في السيادة.

الطريق إلى النساء

أجريتُ جزءًا من المقابلات، بينما قامت مساعِدات البحث بالجزء الآخر، وقد اعتمدتُ طريقة المقابلات المفتوحة جزئيًّا، بمعنى أنّ الأسئلة تناولت سِيَر حياتهنّ المهنيّة وأتاحت المجال للسرد بشأن مواضيع أخرى لم آخذها في الحسبان تطوّرت من خلال اللقاء. وقد تراوحت كلّ مقابلة بين ساعة ونصف وساعتين.

نتائج البحث

آليّات المحو

اعتمادًا على دراسة ميدانيّة، سأتناول في ما يلي أربع آليّات فصل تجري إعادة إنتاجها في مواقع العمل، وتضمّ مؤشّرات عِرقيّة ودينيّة وجندريّة وقبليّة تُستخدَم وتُوظَّف لغرض التحكُّم بأجسام وأدوار النساء والإبقاء على إقصائهنّ من الحيّز العامّ. واعتمدت الدراسة الميدانيّة إلى "التقاطعيّة" كمنهجيّة بحث نظريّة، أجريتُ بموجبها مقابلات مع خمسين امرأة فلسطينيّة تلقَّيْنَ دراستهنّ في الكلّيّات الجامعيّة الإسرائيليّة والأردنيّة والأوروبيّة المختلفة -متزوّجات لديهنّ أبناء، وعزباوات-، ممّن تتراوح أعمارهنّ بين أواسط العشرينيّات وأواسط الثلاثينيّات، ويعملن في القِطاع العامّ في سوقَيْ عمل منفصلَيْن، واحد يهوديّ والآخر عربيّ. هذه الشريحة تشمل مدرّسات، ومستشارات تربويّات، وعاملات اجتماعيّات، وممرّضات، وطبيبات، وعالِمات، وباحثات، ومحاضِرات، ومحاميات، واختصاصيّات نفسيّات، وإداريّات، وصيدلانيّات، وجميعهنّ يعملن في وظائفهنّ منذ ما يتراوح بين خَمس وعَشر سنوات.

تشير نتائج البحث إلى ثلاث حالات إقصاء متمثّلة بطرق قمعيّة ملموسة جسديًّا.

1. سياسة الخوف: تُنتِج عداءً من خلال المؤشّر اللغويّ

على الرغم من مكانةِ اللغة العربيّة القانونيّةِ (التي بحسبها تُعتبَر اللغةَ الرسميّة الثانية في البلاد قبل سَنّ قانون القوميّة)،[2] تُعتبَر هذه اللغة في إسرائيل لغة العدوّ، ولذا فهي تُعتبر مؤشّرًا للإنسان العربيّ كعدوّ (أمارة ومرعي، 2011)، وللخوف من هذا العدوّ اللا إنسانيّ. يُعتبر هذا المؤشّر جزءًا من سياسة الخوف تجاه مَن هو عربيّ. رَوَت النساء في هذا المضمون عن خوفهنّ المستمرّ في مكان العمل اليهوديّ من أن يكتشف زملاؤهنّ أو زبائنهنّ أنّهنّ عربيّات. لذا، يحاولن إخفاء لغتهنّ وهُويّتهنّ العربيّة.

تقول إحدى الطبيبات النفسيّات:

> حدث معي هذا الأسبوع موقف مع أحد المتديّنين اليهود، حينما دخل إلى مكتبي عن طريق الخطأ، وقد كنت وقتها أتكلّم بهاتفي. وعندما دخل، أغلقت هاتفي بسرعة كي لا يكتشف أنّي عربيّة. شو راح يصير إذا عرف إنّي عربيّة؟!

2. كُتِبت الدراسة قبل سَنّ قانون القوميّة، عام 2018. معنى هذا أنّ السياسة الاستعماريّة لم تكن بحاجة إلى ذلك القانون.

من هنا نرى أنّ هُويّتهنّ القوميّة تُحَوّلهنّ في هذا الحيّز إلى "أخريات مخيفات معاديات" أو -على حدّ تعريف فانون- إلى (Feared/Hostile other)، وبالتالي يفقدن شعورهنّ بالانتماء إلى مكان عملهنّ. تقول إحدى النساء:

> صَحّ أنا بَشتغل هون بَس لا أشعر إنّي أنتمي لهذا المكان. لن أشعر بالأمان أنّ هذا هو مكاني... لا أستطيع أن أعبّر بِحرّيّة عن آرائي أو أحكي من غير تخوُّف.. هذا الشعور يحبطني.

التخوُّف هو من ردود فعل الطاقم في حالات الحرب أو التوتّر السياسيّ الذي يدفع هؤلاء النساء إلى الاختفاء والاختباء من هذا الحيّز. تقول عاملة اجتماعيّة: "كنت أقفل على نفسي داخل مكتبي، ولا أخرج إلّا لإخراج البريد أو لأخذ ورقة من آلة الطباعة".

استبطان هذا القهر يعيد إنتاج قوّة وسيطرة المحتلّ من خلال خلق ما تسمّيه ستيل (Stereotypical threat)، وهو التخوُّف من وصمة التهديد كنتيجة لاستعمال لغتك التي تكمن فيها عَواقِب الوصم (Steele, 2009).

2. السلطة الحيويّة (Biopower) في خدمة السيادة اليهوديّة

تخلق السيادة الكولونياليّة أساليب خاصّة لتنظيم السكّان تساند وتوسّع وتطبع قوّة الاستيطان. ومن هذه الأساليب ممارَسةُ العنصريّة من خلال إعاقة تقدُّم النساء المهنيّ في أماكن عملهنّ الذي يحتاج إلى نساء يتكلّمن اللغة العربيّة مع المعالِج العربيّ. تقول إحدى الممرّضات:

> أغلب المسؤولات في مراكز العائلة هنّ يهوديّات. أحيانًا يوظّفون ممرّضة روسيّة تتكلّم "عبريّة-روسيّة" ولا يفهمها أحد. بينما نحن الممرّضات العربيّات نستطيع أن نفهم اللغة ونستطيع أن ندير مراكزنا بأنفسنا.

ثمّة وسيلة أخرى للسلطة الحيويّة هي العنصريّة في مكان العمل، وهو ما يتجسّد في خلق فروق "ثقافيّة" وتكريسها من قِبل مختلف "لاعبي" سوق العمل. تقول إحدى الممرّضات:

> عندما أردت التوجّه لدراسة اللقب الثاني، رفضت المسؤولة اليهوديّة عنّي هذا الأمر وشَرَعت تستهزئ بي: حقًّا؟! هل تعتقدين أنّ الدراسة أمر سهل؟! هل لديك أطفال؟ خْسارَة على اوْلادِك.

عند تبنّي إستراتيجيّة عدم ترقية النساء في الحيّز العامّ، يجري توظيف مفهوم "الفجوة الثقافيّة /الحضاريّة" للدمغ بصفة الدونيّة التي تلازم ثقافة النساء الفلسطينيّات. لذا تتحوّل هذه الفجوة إلى سبب "شرعيّ" لتفسير "عدم قدرتهنّ على التقدُّم". تقول إحدى النساء:

> حصلت على الدرجة الجامعيّة الثانية، وأريد أن أصبح مسؤولة على القسم، لكنْ مديرتي عيّنت امرأة يهوديّة أخرى غير حاصلة على درجة جامعيّة ثانية. قالت المديرة إنّي لا أستطيع الارتقاء في عملي بسبب فجوة ثقافيّة.

سياسات التخويف تتجسّد في الحياة اليوميّة من خلال المؤشّر الدينيّ الذي يدور حول اللباس الدينيّ، ولا سيّما غطاء الرأس، كجزء من السياسات الكولونياليّة المتمثّلة في الخوف من الإرهاب الإسلاميّ ومن المرأة المسلمة. ففي صفوف النساء الفلسطينيّات، نراها من خلال الحفيظة وفزع بعض زميلاتهنّ اليهوديّات في العمل من لباسهنّ الشرعيّ. هذا الفزع يتمثّل -في حالات كثيرة- في رفض قبول نساء مسلمات في وظائف داخل المجتمع اليهوديّ بسبب لباسهنّ الدينيّ على نحوِ ما أشارت إليه العديدات من النساء. هذا المؤشّر الفاصل يُنتِج حاجزًا تقاطُعيًّا آخَر يقوم بإقصاء النساء كمهنيّات مسْلِمات عن المشاركة في سوق العمل اليهوديّ الإسرائيليّ.

هذه العنصريّة تُنتِج ما يسمّيه هانتر ذاتًا مؤسّساتيّةً عنصريّة ومجنسَنة لمهنيّين يقومون بتعريف "حدود ونطاق إمكانيّات التفكير، والكلام والعمل للأفراد المعنيّين الذين يقومون بموضعة أنفسهم داخل خطاب مهنيّ معطى في سياق مؤسَّسيّ معطى" (Hunter, 2010, p. 454).

3. خارج المكان (Out of place) - انعدام الشرعيّة المهنيّة

هذا التشكيك الدائم في مهنيّة النساء الفلسطينيّات وإلغاء شرعيّتهنّ ينعكس في شعورهنّ بأنّهنّ مجبَرات على إثبات قدراتهنّ المهنيّة بسبب كونهّن عربيّات؛ فحِرفيّة النساء العربيّات ليست مفهومة ضمنًا. غالبيّة النساء اللواتي قابلْتُهنّ كرّرن الجملة التالية: "طَوال الوقت رافقَني الشعور بأنّني مجبرة على إثبات مهنيّتي". وقالت إحداهنّ: "يجب عليكِ دائمًا أن تثبتي جدارتك ومهنيّتك؛ لكونك عربيّة". هذا المفهوم الدونيّ للمرأة العربيّة ينبثق من الموروث الكولونياليّ الذي يتغذّى على العنصريّة. تقول وِكِر: "العنصريّة هي مثل الهابيتوس الذي ينقل ويبصم في المؤسّسات ونماذج التفكير اليوميّة والسلوك والتصوُّرات نحو الآخَر" (Wekker, 2016, p. 47).

تواجه النساء هذه الوصمة، التصوُّر النمطيّ، من خلال الفصل بين هُويّتهنّ المهنيّة وهُويّتهنّ القوميّة. تروي إحدى الطبيبات قائلة:

> أسأل نفسي عمّا إذا كان بإمكاني معالجة شخص لا يتقبّلني كعربيّة. إذا لم أستطع، فمن المؤكّد أنّه سوف يقول إنّ المرأة البدويّة لا تستطيع تقديم المعالَجة المهنيّة. من هنا فأنا مجبَرة على الفصل بين هُويّتي القوميّة وهُويّتي المهنيّة حتّى يقولوا إنّ المرأة البدويّة مهنيّة.

في هذا الصدد تقول وِكِر: "الربط المستمرّ بين العِرق والاستعلاء الطبقيّ الذي يؤكّد السيادة العِرْقية للأبيض، يستخدَم أوتوماتيكيًّا للربط بين العِرْق الأسود (الأصلانيّ في هذه الحالة) والطبقة الدونيّة" (Ibid).

في هذه الحالة، نرى أنّ إخراس رغبات النساء البدويّات كعاملات هو جزء من تذويت السيادة والهيمنة والاستيطانيّة عبْر الجانب الجسديّ، أيْ عبْر تذويت مشاعر الخوف. ضبط المشاعر والحواسّ من خلال الجسد هو الوسيلة لإقصاء الجسد الاجتماعيّ والرمزيّ للأصلانيّ من الحيّز الكولونياليّ. هذا التأديب الحسّيّ (Sensory disciplining) يولّد الإحساس بعدم الانتماء لمكان العمل، وهو مهمّ جدًّا في فرض أو شَرْعَنة وجود المستعمِر وسيادته، التي تشكّل ذات المستعمِر الواثق من كيانه في الحيّز، حرًّا ومسيطرًا، بينما تشكّل ذاتَ الأصلانيّ كذات محصورة، محتجَزة وغير طليقة (مسجونة).

هذه الذات يسمّيها ستيل (2009) "الذات المتضرّرة والمعنصَرة" التي ترغب في الانتماء إلى الحيّز الطبقيّ، لكنّها تدرك أنّ هذا الانتماء مستحيل. وهذا الأسلوب هو جزء من إلغاء الوجود الطبقيّ للأصلانيّ.

لذا، محاولات إلغاء الوجود الطبقيّ الأصلانيّ يتمثّل في الأرض: فإنّ الجسد الأصلانيّ يُعتبر كجسد فائض يعبّر عن توسُّع الأصلانيّ في الحيّز أو في الأرض (King, 2013; Wadi, 2012). وكي يحدّ المستعمِرُ من توسُّع الأصلانيّ، يستعمل أساليبَ الاستيلاء القمعيّة كسلب ذات الأصلانيّ، وسلب إرادته، وخلق ذات الهائب/المتخوّف (Fanon, 1963) وضبط المشاعر الذي يؤدّي بالتالي إلى سلب شعور الانتماء، كسلب المِلْكيّة من أجل تشكيل سيادة ومِلْكيّة استعماريّة، وعسكرة الحيّز من خلال إعادة صياغة التعريف لمن هم أصحاب الحيّز /الأرض (Shalhoub-Kevorkian, 2016).

أساليب الضبط غير المباشر

في هذا الجزء، سأشير إلى أسلوبَيْن للضبط غير المباشر: تكريس النظام الأبويّ، وتعزيز النظام القبليّ.

تكريس الضغط الأبويّ يشكّل حاجزًا إضافيًّا للنساء يمنعهنّ من الدخول إلى الفضاء الاستعماريّ (Morgensen, 2012). نجد مثال ذلك في قصّةِ عاملةٍ أرادت أن تترقّى في عملها، ولكن "الفجواتُ الثقافيّة"، وعدمُ تلقّيها وظيفة كاملة، والعملُ في ساعات الليل من غير دخل متساوٍ، كلّ هذا دفع أباها أن يضغط عليها لتترك العمل وتعمل في التدريس مع ساعات عمل ودخل ملائمين مثل أختها المعلّمة. تقول:

> لأنّي عملت يوميًّا أربع ساعات فقط، بدأ أبي يضغطني ويقول لي: "أنت لا تكسبين الأجر الكافي". كان هذا عندما أنهت أختي دراستها وبدأت تعمل مدرّسة في المدرسة وتكسب الأجر الجيّد وتعود الساعة الثانية ظهرًا إلى البيت. أمّا أنا، فعملت حتّى الساعة الثامنة ليلًا، أقضي ساعات عمل طويلة من غير أجر ملائم. أصبح أبي يفكّر من جديد في ما إذا كان هذا العمل يناسبني أم لا. فقرّر لي قائلًا: "هذا العمل لا يناسبك. يجب أن تتركيه وتعودي للعمل معلّمة. شعرت بالإحباط، لأنّي قادرة على العمل ساعات أكثر ولكنّهم لا يعطونني أيّة فرصة.

ثمّة مثال آخر نجده في عدم موافقة ممرّضات يهوديّات أن يدخلْنَ القرى العربيّة في سيّارة العمل خوفًا من العرب، ممّا يجعل الممرّضة العربيّة تتّكل على أبيها أو أخيها في هذا الشأن في ساعات الليل المتأخّرة أو الصباح المبكرة، ولا سيّما أنّها تقيم في قرية مسلوبة الاعتراف.[3]

تروي إحدى النساء قائلة:

> كان الأمر صعبًا جدًّا لأنّ سيّارة المستشفى رفضت الدخول إلى بلدي. السائق اليهوديّ والممرّضات اليهوديّات رفضوا الدخول. في البداية كانوا يُقِلّونني من المفترق الذي يبعد عشرات الكيلومترات عن بيتي. الوقوف هناك لوحدي كان خطِرًا. في الأيّام الأولى، كانت الممرّضات اليهوديّات يقلن: "هذا لن يحدث. لن ندع هذا يحدث أبدًا! نحن لا ندخل إلى القرية". كُنَّ يجرحنني في تعليقاتهنّ. كلّ واحدة منهنّ كانت تتميّز بأخذها وتوصيلها إلى دارها، بينما أنا اضطُرِرت أن أنتظر بعيدًا عن بيتي في المفترق، وهو ما صعّب الأمر على أهلي.

هذا ما تسمّيه كْرِنْشو (Crenshaw, 1993, p. 1249) "التبعيّة المتقاطعة، وهي تنتج عن فرض أذيّة تتقاطع مع أذيّة مسبقة وتولّد بعدًا آخر من الخضوع". ثمّة مثال آخر لهذا التقاطع نلحظه في تعزيز النظام القبليّ واستهدافه كمؤشّر (قبليّ) لقمع المرأة ووضعها

3. هنالك ما يقارب أربعين قرية قديمة لم تهجَّر ويقطن فيها عرب النقب، لكن لم تعترف بها حكومات إسرائيل المتعاقبة كقرى؛ لذلك تسمّى "مسلوبة الاعتراف"، فتُعاقَب من قِبل الدولة بسلبها الخدمات الأساسيّة -كالكهرباء والمياه الجارية والمواصلات والبنْية التحتيّة وهدم البيوت- لأنّها تُعَدّ "غير قانونيّة" من منظور الدولة.

تحت بنْية أخرى من السيطرة التي يعود إنتاجها في التاريخ الاستعماريّ. يُظهر التاريخ الكولونياليّ أنّ "سياسة الوجهاء"، التي تمنح الامتيازات والقوّة للزعماء التقليديّين كي يتمكّنوا من فرض النظام على مجموعتهم، ومن الإبقاء على أفرادها رعايا لا يُخِلّون بالنظام العامّ، هذه السياسة جرى استخدامها كإستراتيجيّة من قِبل أنظمة كولونياليّة كثيرة في تاريخ العرب والفلسطينيّين في الشرق الأوسط (Khatar, 2001; Watenpaugh, 2006). هذه الإستراتيجيّة تتواصل في أيّامنا الحاليّة أيضًا تحت سيادة دولة إسرائيل؛ فسَجْنُ البدو في بلدات جرى تقسيمها إلى أحياء بحسب المَنشأ القبليّ، وبناءُ مدارس تحمل اسم القبيلة نفسها، ومواصلةُ سياسة التعيينات القبَليّة غير المهنيّة، كلّ هذه تشكّل استمرارًا لسياسة بناء التحالفات مع القيادة القبَليّة التي ستُستخدَم لاحقًا (كما يُظهر البحث الحاليّ). تشكّل هذه الإستراتيجيّة حجر عثرة أمام نموّ فئة مهنيّة من النساء البدويّات. هذه الشيفرة القبَليّة تعزّزها مؤسّسات الدولة المختلفة التي تعمل في البلدات البدويّة في النقب، كمكاتب الخدمات الاجتماعيّة، والشرطة، ووزارة التربية والتعليم. هذه المؤسّسات أبقت فراغًا يعمل فيه البوّابون القبَليّون ضدّ النساء المهنيّات دونما تدخُّل من مؤسّسات الحكم، عندما يستدعي الأمر مثل هذا التدخّل والإشراف المهنيّ.

تعزيز النعرة القبَليّة، أو ما يسمّيه مَمْداني (Mamdani, 1996) "القانون العُرفيّ" من قِبَل الكولونياليّة الاستيطانيّة، يرمي إلى السيطرة على السكّان الأصلانيّين عبْر مؤسّساتهم هم. هذا الأمر تطلّب من المستعمِر وضْعَ الأصلانيّين في مؤسّساتهم، وبناءَ طبقة معيّنة يمكن بواسطتها التحكُّم بهم ومنعهم من تخطّي حدّ التقاليد والأعراف والخروج إلى فضاءات السوق الكولونياليّ الحرّ. تسويغ مثل هذا الفصل جرى بمفردات التعدُّديّة الإثنيّة، لا بمفردات العنصريّة. على هذا النحو أصبحت القبَليّة أداة وسيطة للإقصاء الكولونياليّ، وجرى بالتالي تحويل الخطاب من خطاب عِرقيّ إلى خطاب قبَليّ.

معظم المستطلَعات في هذا البحث تحدّثن عن التوتّر بين الشيفرات القبَليّة (على سبيل المثال: عدم التدخّل في شؤون قبيلة أخرى، وحظر الكشف عن معلومات تتعلّق بابن أو ابنة القبيلة) والشيفرات المهنيّة (كالشيفرات العلاجيّة التي تستوجب تدخُّلًا علاجيًّا، بل كذلك تدخّلًا قانونيًّا، في أمور القبائل الأخرى، أو إخراج معلومات من القبيلة لأهداف مهنيّة). هذا التصادم يُفْضي -في الكثير من الحالات- إلى إطلاق التهديدات، وكذلك إلى ممارسة العنف ضدّ النساء اللواتي يعملن في البلدة البدويّة (ولا سيّما العاملات الاجتماعيّات والمحاميات منهنّ)، وعلى ضوء ذلك، ترى المستطلَعات أنّ العمل في بلداتهنّ يحمل في طيّاته مساوئ جمّة، لأنّ "المرأة العاملة في المجتمع البدويّ ليست محميّة".

بسبب وجود العَقْد غير المكتوب بين المؤسّسة والقبيلة، لا تقع العاملات أو المعالِجات الفلسطينيّات وحدهنّ أسيرات هذا الفخّ المتقاطع، بل يعاني منه المعالَجون كذلك. فالنساء اللواتي يقعن في دائرة الخطر (بسبب العنف، والنزاع على وصاية الأولاد، والطلاق، وتعدُّد الزوجات) يطلبن مساعدة من العاملات الاجتماعيّات والمحاميات اللواتي يعملن في مراكز المساعدة العربيّة غير الحكوميّة في النقب (كالمنظّمات الحقوقيّة النسائيّة -على سبيل المثال). لكن السعي لتخليص المتوجّهات من دائرة الخطر ومحاولة العثور على حلّ في الأطر القانونيّة القائمة يواجِه في حالات عديدة رفضًا من قِبَل المؤسّسات اليهوديّة التي تخشى الإخلال بالمعايير السلوكيّة التقليديّة، فتقوم بإعادة المعالَجة إلى الأجسام القبَليّة البطركيّة. وكما ذكرتْ إحدى المحاميات، "يجري إغلاق نصف الملفّات لأنّنا لا ننجح في عمل أيّ شيء في القضايا المطروحة فيها. عندما نتوجّه إلى أقسام الخدمات الاجتماعيّة، ترفض العاملات أو المشْرفات عليها -وغالبيتهنّ من اليهوديّات- تطبيقَ القانون وحماية النساء". في هذه الحالة، تتولّد سلسلة من تقاطعات هياكل القوّة -أي تقاطع أذيّة هيكل قوّة واحد مع قمع هيكل قوّة آخر، ومعًا يولّدان مزيدًا من القمع (Crenshaw, 1993).

خلاصة

عمليّة قطع الطريق على نموّ الطبقة الوسطى المهنيّة وإقصائها من الحيّز العامّ تجري بواسطة عدم الاعتراف بالطبقة الاقتصاديّة والمهنيّة، بالقوّة التي تجلبها النساء إلى هذا الحيّز. يتجسّد عدم الاعتراف هذا في تكرار مساعي لاعبي الأُطُر المهيمنة لمعاقبة وتأديب (Disciplining) النساء في الحيّز العامّ، وبالتالي تثبيتهنّ في هُويّة جوهرانيّة (Essential) تولّد الإقصاء العنصريّ والقبَليّ والجندريّ والدينيّ. عدم الاعتراف بحضور الأصلانيّ يكرّس شرعيّة وجود المستوطن. عندما ينجح حضور الأصلانيّ في تحدّي آليّات المستوطن، يتولّد ما يُطْلِق عليه ألبير مِمِي "عقدة نيرون" (Nero complex) وذلك "عندما يعترف المستوطِن بأنّه مضطهِد ومحتلّ، ويؤكّد الأمر على كونه ناهبًا /استغلاليًّا غير شرعيّ ولا يستحقّ الحصول على امتيازات" (Memmi, 1965, pp. 96-97).

لذا، من خلال ارتدائهنّ هُويّة وعي طبقيّ وهُويّة مهنيّات في الحيّز المهيمن، قد تُقوِّضُ النساءُ الفلسطينيّات المهنيّات اللواتي يحاولن الدخول إلى الساحة الكولونياليّة كمتساويات (لا على الصعيد الاقتصاديّ فحسب، وإنّما كذلك على صعيد الوعي)، قد يقوِّضْنَ موازينَ قوى السيطرة على الحضور الأصلانيّ في الحيّز الكولونياليّ.

يرى المنظور الكولونياليّ /الإسرائيليّ جسد المرأة الفلسطينيّة تهديدًا يجب على الدولة الاستعماريّة التخلُّص منه والتحكُّم به. من خلال استعمار جسد المرأة الفلسطينيّة،

تَستعمر إسرائيل جميع الفلسطينيّين (Wadi, 2012). هذا المنظور يترك بصماته على الجسد المستعمَر، كما تروي قاسم (Kassem, 2011) في كتابها الذي يروي قصّة الجيل الأوّل من نساء النكبة. فالمرأة الفلسطينيّة تنظر إلى استعمار واقتحام أرضها كما تنظر إلى اقتحام جسدها. عندما تُستعمَر الأرض، يكون جسد المرأة في خطر، لأنّها تصبح هدفًا للعنف الجندريّ (كالاغتصاب والعنف الجنسيّ) من قبل المستعمِر. يعزّز هذا العنف الدَّوْر الأبويّ للرجل كحامٍ للمرأة. هكذا تُسلب من المرأة قوّتها الفاعلة وتوضع في قالب الضحيّة التي هي بحاجة ماسّة إلى حماية الرجل. هذا الخطاب الاستعماريّ يرمي إلى منع وصول الجسد الفلسطينيّ إلى الحيّز الاستعماريّ. في المقابل، أشير في هذا البحث إلى دخول المرأة إلى الحيّز الاستعماريّ بشكل جسد برجوازيّ "قانونيّ" وَ "شرعيّ"، يعمل المستعمِر على محوه بطرق وأساليب حكيمة /ذكيّة.

بناء على متابعتي لمفهوم هرميّة "الجسد الطبقيّ" (Class body) لبورديو (Discussed in Mason, 2013)، الذي من خلاله جسدُ المرأةِ وكلٌّ من هو ليس أبيض اللون يُعَدّ غيرَ إنسانيّ وخارج السيطرة، على العكس من الجسد الأبيض البرجوازيّ المنظّم والمثقّف، أدّعي في هذه الورقة أنّ الجسد المنظَّم والمثقَّف للمرأة الفلسطينيّة الذي يدخل الحيّز الاستعماريّ يهدّد هرميّة هذا الجسد الطبقيّ. حضور الجسد الطبقيّ البرجوازيّ للنساء المهنيّات الفلسطينيّات هو حضور غير مرغوب؛ وذلك أنّه يهدّد نموّ وسيادة الجسد الطبقيّ والبرجوازيّ الذي يسيطر على هذا الحيّز.

التهديد الكامن في هذه الأجساد -على نحو ما تدّعي ميسون- هو في تطوُّرها وانطلاقها كجماعة/عِرق، لا بالضرورة كأفراد (Mason, 2013, p. 694). بكلمات أخرى، حضور المجموعة الطبقيّة الأصلانيّة _ الفلسطينيّة يؤكّد إمكانيّة تطوُّر هذه الطبقة، وبذلك تهدّد تكاثر وازدياد هذا الجسد العدوّ (الفلسطينيّ).

المَراجع

أبو عجاج، سليمان؛ وَبن ديڤيد، يوسي. (1988). التربية التقليديّة لدى بدو النقب. **ملاحظات على موضوع البدو** ("هِعَروت بِنوسِيه هَبِدْوِيم")، 19. سْدِيهْ بُوكِير. ص 1-14. [بالعبريّة]

أمارة، محمّد؛ وَمرعي، عبد الرحمٰن. (2011). مسمّيات هُويّة العربيّ - الفلسطينيّ وتأطيرها في الواقع الإسرائيليّ. **الحصاد**، العدد 1. الكليّة الأكاديميّة بيت بِيرْلْ.

غزّة، رمسيس (محرّر). (2015). المجتمع العربيّ في إسرائيل (7). **السكّان المجتمع والاقتصاد**. القدس: معهد ڤان لير.

چولدين، سيچال؛ وكِمب، أدريانا. (2008). غربة وخصوبة: سياسة أحياء ("بيو-بوليتِكس") مهاجرات العمل، جسم وجندر. لدى: يهودا، شنهاڤ؛ ويوسي، يونا (محرّران). **العنصريّة في إسرائيل**. رعنانا: معهد ڤان لير. [بالعبريّة]

منّاع، عادل (محرّر). (1999). **الفلسطينيّون في القرن العشرين: نظرة من الداخل** (دراسات حول المجتمع الفلسطينيّ). القدس: معهد ڤان لير. [بالعبريّة]

هوز، رون؛ وكينان، عينات. (1997). **جوانب شخصيّة ومجتمعيّة للأسباب التي تؤثّر على استمرار تعليم الفتيات في المدارس البدويّة في منطقة الجنوب** (تقرير بحث). تل أبيب: معهد موفيت. [بالعبريّة]

يوناي، يوڤال؛ وكراوس، ڤيرِد. (0102). ثقافة أم بنيويّة الفرص؟ لماذا لا تشارك النساء الفلسطينيّات بشكل كامل في سوق العمل؟. لدى: فيصل، عزايزة؛ وخولة، أبو بكر؛ راحيل، هيرْتْس-لَزَروڤيتْس؛ وأسعد، غانم (محرّرون). **نساء عربيّات في إسرائيل: وصف حالة ونظرة مستقبليّة** (ص 237-259). تل أبيب: دار رَمُوت للنشر. [بالعبريّة]

Abdo, Nahla. (2011). **Women in Israel: Race, gender and citizenship**. London and New York: Zed Books.

Abu-Bader, Sliman, & Gottlieb, Daniel. (2009). **Poverty, education and employment in Arab-Bedouin society: A comparative view**. Jerusalem: National Insurance Institute, Research and Planning Administration.

Abu-Saad, Ismael. (2008). State rule and Indigenous resistance among Al Naqab Bedouin Arabs. **Hagar: Studies in Culture, Polity and Identities**, 8(2). Pp. 3-42.

Ben-David, Yossi. (2000). **Cultural and environmental reasons that affect Bedouin children dropout from school**. Report submitted to Israeli ministry of education. Jerusalem: Institute for Studying Israel.

Bourdieu, Pierre. (1989). Social space and symbolic power. **Sociological Theory**, 7(1). Pp. 14-25.

Crenshaw, Kimberly. (1993). Mapping the margins: Intersectionality, identity politics, and violence against women of color. **Stanford Law Review**, 43. Pp. 1241–1299.

Fanon, Franz. (1963). **The wretched of the earth**. New York: Grove Press.

Foucault, Michele. (1980). **The history of sexuality, Vol. 1: An introduction**. New York: Vintage Books.

Good, Kenneth. (1976). Settler colonialism: Economic development and class formation. **The Journal of Modern African Studies**, 14(4). Pp. 597–620.

Herzog, Hanna. (2004). Both an Arab and a woman: Gendered, racialized experiences of female Palestinian citizens of Israel. **Social Identities**, 10(1). Pp. 53–81.

Hunter, Shona. (2010). What a white shame: Race, gender and white shame in the relational economy of primary health care organizations in England. **Social Politics**, 17(4). Pp. 450–476.

Jabareen, Yosef. (2017). Controlling land and demography in Israel: The obsession with territorial and geographic dominance. In Rouhana, Nadim, N. (Ed.). **Israel and its Palestinian citizens: Ethnic privileges in the Jewish state** (pp. 238-265). Cambridge: Cambridge University Press.

Kassem, Fatmah. (2011). **Narrative histories and gendered memory**. London: Zed Books.

Khattab, Nabil. (2002). Ethnicity and female labor market participation: A new look at the Palestinian enclave in Israel. **Work, Employment and Society**, 16(1). Pp. 91–110

Khatar, Akram. (2001). **Inventing home: Emigration, gender and the middle class in Lebanon, 1870-1920**. Berkeley: University of California Press.

King, Tiffany. (2013). **In the clearing: The black female bodies, space and settler colonial landscapes**. [PhD thesis, University of Maryland, College Park].

Kressel, Gideon. (1992). **Descent through males: An anthropological investigation into the patterns underlying social hierarchy, kinship, and marriage among former bedouin in the Ramla-Lod area**. Weisbaden: Otto Harrassowitz.

Lemke, Thomas. (2011). **Biopolitics: An advanced introduction**. New York and London: New York University Press

Lewin-Epstein, Noah, & Semyonov, Moshe. (1994). Sheltered labor markets, public sector employment and socio-economic returns to education of Arabs in Israel. **American Journal of Sociology**, 100(3). Pp. 622–651.

Mamdani, Mahmood. (1996). **Citizen and subject: Contemporary Africa and the legacy of late colonialism**. Princeton, NJ: Princeton Studies.

Mason, Katherine. (2013). Social stratification and the body: Gender, race and class. **Sociology Compass**, 7(8). Pp. 686–698.

Memmi, Albert. (1965). **The colonizer and the colonized**. Beacon Press.

McEwan, Cherly. (2009). **Postcolonialism and development**. London: Routledge.

Morgensen, S. Lauria. (2012). Theorizing gender, sexuality and settler colonialism: An introduction. **Settler Colonial Studies**, 2(2). Pp. 2-22.

Nasasra, Mansur. (2015). Ruling the desert: Ottoman and British policies toward the Bedouin of the Naqab and Transjordan region 1900–1948. **British Journal of Middle Eastern Studies**, 42(3). Pp. 1–23.

Robinson, Glen. (1993). The role of professional middle class in the mobilization of Palestinian society: the medical and agricultural committees. **International Journal of Middle East Studies**, 25(2). Pp. 301-326.

Rosenfeld, Henry. (1978). The class situation of the Arab national minority in Israel. **Comparative Studies in Society and History**, 20(3). Pp. 374-407.

Rouhana, Nadim, & Sabagh-Khoury, Areej. (2014). Settler colonial citizenship: Conceptualizing the relationship between Israel and its Palestinian citizens. **Settler Colonial Studies**, 5(3). Pp. 205-255.

Smith, Andrea. (2003). Not an Indian tradition: The sexual colonization of native peoples. **Hypatia**, 18(2). Pp. 70–85.

Steele, Claude. (2009). A threat in the air: How stereotypes shape intellectual identity and performance. In Taylor, Edward; Gillborn, David, & Ladson-Billings, Gloria (Eds.). **Foundations of critical race theory in education** (pp. 163-189). New York and London: Routledge.

Stoler, Ann. (1997). **Race and the education of desire**. Chapel Hill, NC: Duke University Press.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2016). The occupation of the senses: The prosthetic and aesthetic of state terror. **British Journal of Criminology and Justice**, 57(6). Pp. 1279–1300.

Taraki, Lisa. (2008). Urban modernity on the periphery: A new middle class reinvent the Palestinian city. **Social Text**, 95(26). Pp. 60-81.

Turner, Mandy & Shweiki, Omar. (2014). **Decolonizing Palestinian political economy: De-development and beyond**. New York: Palgrave Macmillan.

Veracini, Lorenzo. (2010). **Settler colonialism: A theoretical overview**. New York: Palgrave Macmillan.

Wadi, Shahd. (2012). Palestinian women's bodies as a battlefield. In Capeloa, Isabel, & Matintz, Adriana (Eds.). **Plots of war: Modern narratives of conflict** (pp. 114-123). Berlin: Walter De Gruyter.

Watenpaugh, David. (2006). **Being modern in the Middle East: Revolution, nationalism, colonialism and the Arab middle class**. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Wekker, Gloria. (2016). **White innocence: The paradoxes of colonialism and race**. Chapel Hill, NC: Duke University Press.

West, Michael. (2002). **The rise of an African middle class: Colonial Zimbabwe, 1898–1965**. Bloomington, IN: Indiana University Press.

Wolfe, Patrick. (2012). Purchase by other means: The Palestine Nakba and Zionism's conquest of economics. **Settler Colonial Studies**, 2(1). Pp. 133–171.

Yiftachel, Oren. (2009). Ghetto citizenship: The Palestinian Arabs in Israel. In Rouhana, Nadim, N., & Sabbagh-Khoury, Areej (Eds.). **Israel and the Palestinians: Key terms** (pp.56-61). Haifa: Mada Center for Applied Research.

يأتي هذا الكتاب حصيلةً للمشروع الذي بادر إليه مدى الكرمل، والذي جمع من خلاله كوكبةً من الأكاديميّين والمحاضرين وطلبة دراسات عليا فلسطينيّين يدرسون في جميع أنحاء فلسطين ضمن ثلاث ورشات دراسيّة امتدّت كلّ منها على مدار سنة. جمَعَ هؤلاء الباحثين الانشغالُ السياسيُّ والأكاديميُّ في فهم الصهيونيّة بوصفها مشروع استعمار استيطانيّ، وفي بحث آليّات هذا المشروع وفرضيّاته وأُسُسه الفكريّة والدينيّة والسياسيّة. كذلك ناقشت الورشات التحوّلات التي مرّ ويمرّ فيها المشروع الصهيونيّ جرّاء فشله، منذ بداياته الأولى، في إخضاع المقاومة الفلسطينيّة المستمرّة على جميع أشكالها.

يأتي كُتّاب وكاتبات المقالات من حقول معرفيّة مختلفة، ويعيشون سياقات جغرافيّة وسياسيّة وقانونيّة وأكاديميّة مختلفة. قارَبَ بعض الكتّاب الصهيونيّةَ ومشروعَها الاستعماريَّ مقارَبةً تاريخيّة، بينما قرأها آخَرون من زاوية ممارساتها على من يعيش في ظلّ منظومتها إمّا داخل أرضه، وإمّا مهجَّرًا داخل بلده، أو خارجها. بعض المقالات بحثت في مقاومة المشروع، أو في الوعي المقاوِم لهذا المشروع. وقد عُنِيَ بعضها الآخَر بتحليل المنظومة نفسها، واشتباك بُعدها الاستعماريّ الاستيطانيّ مع البعدَيْن الدينيّ والقوميّ أو الإنتاج المعرفيّ حولها من قِبل مؤسَّستها الأكاديميّة أو مقاوميها. وقد قرأتْ بعضُ المقالات هذا المشروعَ قراءةً مقارِنةً مع سياقات عربيّة أو عالميّة أخرى.

يُسهم الكتاب في النقاش الدائر حول مكان دراسات الاستعمار الاستيطانيّ في فهم طبيعة الدولة الإسرائيليّة، وفي تطوير إستراتيجيّات فلسطينيّة للتحرُّر على ضوء هذا الفهم.

مدى الكرمل – المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية، هو مؤسسة بحثية مستقلة غير ربحية تأسست عام 2000 في مدينة حيفا. يهتم مدى الكرمل بالتنمية البشرية والقومية في المجتمع، ويهدف إلى تشجيع البحث التطبيقي والنظري حول الفلسطينيين في إسرائيل. ويركز مدى الكرمل على سياسة الحكومة والاحتياجات الاجتماعية والتربوية والاقتصادية للمواطنين الفلسطينيين في إسرائيل وعلى الهوية القومية والمواطنة الديمقراطية. ويسعى المركز إلى توفير قاعدة مؤسساتية ومناخ فكري لدراسة احتياجات الفلسطينيين في إسرائيل ومستقبلهم الجماعي وعلاقتهم بإسرائيل وبباقي أجزاء الشعب الفلسطيني والعالم العربي. كما يسعى إلى تدريب جيل جديد من علماء الاجتماع والسياسة الفلسطينيين على توجهات نقدية في الدراسات الفلسطينية والإسرائيلية.

Zionism and Settler Colonialism: Palestinian Approaches
Edited by: Nadim N. Rouhana and Areen Hawari
ISBN: 978-965-7308-28-8